غزّة العزّة: عندما تتكشف اللعبة

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس مجلس إدارة مجموعة تمكين الاستثمارية
رئيس مجلس أمناء سلسلة مدارس كينو الخاصة

نحيا اليوم في زمن أقلّ ما يوصف بكونه من أزمنة الجاهلية المتطرّفة، فإنْ كانت الجاهلية تئد البنات، فقد وصلنا في عصرنا لوأد أمم وشعوب بأكملها، وإنْ كانوا يبيعون العبيد في الجاهليّة، فإنّنا قد تمادينا في عنجهيّتنا لبيع الأوطان في مزادات الأطماع الدوليّة، وإنْ كانوا يقتلون أعداءهم في معاركهم، فنحن قد بتنا نقتل الكرامة الإنسانيّة على مذابح المصالح الاقتصاديّة....

فحين تُثار تصريحات عن شراء غزّة أو صفقات تتعلّق بمصيرها، فإنّنا لسنا أمام مجرّد خطابات سياسيّة عابرة، بل أمام كشف فاضح للحقيقة التي طالما حاولوا إخفاءها:

فغزّة ليست قضيّة إنسانيّة فحسب، بل هي كنز إستراتيجيّ واقتصاديّ يسيل له لعاب القوى العظمى....

فهناك حقيقة مخفيّة لكنوز تحت الأنقاض، فهناك...

ثروة الغاز الطبيعيّ، تلك الجوهرة المدفونة، فتحت مياه البحر المتوسط، وقبالة شواطئ غزة المحاصرة، تكمن ثروة هائلة من الغاز الطبيعي تُقدّر بأكثر من 3 تريليونات قدم مكعبة في حقل "نوى" وحده، وهو الحقل الذي سيطرت عليه إسرائيل بالفعل، وهناك حقول أخرى مُنع التنقيب فيها، أبرزها حقل "الوسطى" مقابل مخيّم النصيرات، والذي يُتوقّع أنْ يحتوي على مخزونات ضخمة من الغاز، وهناك حقل "غزّة مارين"، الذي ظلّ حبيس المفاوضات والحصار لعقود، فهذه الحقول مفتاح الاستقلال الاقتصاديّ لشعب بأكمله، وفيها ثروة كافية لتحويل غزّة من سجن كبير إلى دولة مزدهرة تصدّر الطّاقة وتبني مستقبلها بيديها، ولكنّ السؤال المُلحّ: لماذا يُمنع شعب غزة من الاستفادة من ثرواته الطبيعيّة؟ لماذا يُحاصر ويُجوّع بينما تحت أقدامه كنوز تكفي لإطعام أجيال؟

فما نهب ثورات غزّة بالقوة والحصار إلاّ أكل للمال بالباطل، ولو تدثّر بثوب القانون الدوليّ أو الاتفاقيّات الأمنيّة، وفي ذلك يقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188] ...

والنّفط الأسود، تلك الثروة المنسيّة، فاحتياطيّات النفط المؤكدة في غزة تُقدّر بحوالي مليار ونصف برميل، بقيمة تبلغ اليوم نحو 115 مليار دولار، وهذا الرقم وحده يكفي لفهم لماذا تُعتبر غزة جوهرة ثمينة الصيد في نظر المخطّطين الإستراتيجيّين، فهو رقم يفوق ميزانيّات دول بأكملها، ورقم يفسّر الإصرار العجيب على إبقاء هذه البقعة الصغيرة تحت السيطرة، بأيّ ثمن....

والموقع الإستراتيجيّ، تلك البوابة الذهبيّة، التي تمتدّ كشريط ساحليّ على البحر المتوسط لمسافة 40 كيلومتراً تقريباً، فهذا الموقع ليس مجرّد شواطئ جميلة، بل هو نقطة التقاء حيويّة بين آسيا وأفريقيا وأوروبا، وهو بوّابة بحريّة إستراتيجيّة يمكن أنْ تتحوّل إلى مركز تجاريّ ضخم، ومنطقة سياحيّة عالميّة، وميناء لوجيستيّ يربط القارات، ففي عصر تتنافس فيه الدّول على ممرّات التجارة البحريّة ونقاط الوصول إلى الأسواق، يُصبح موقع غزّة أشبه بالذهب، ومن يسيطر على هذه البوّابة، يمتلك مفتاحاً لأحد أهمّ ممرّات التجارة العالميّة في القرن الحادي والعشرين....

والأرض الخصبة والمياه الجوفيّة، ذلك الكنز المستنزف، فعلى الرّغم من الحصار والدّمار، تظلّ أراضي غزّة الزّراعيّة خصبة وقادرة على الإنتاج، فالمناخ المعتدل، والتربة الطيبة، والموقع الجغرافيّ، كلّها عوامل تجعل من القطاع منطقة زراعيّة واعدة، ناهيك عن احتياطيّات المياه الجوفيّة التي يمكن تطويرها بتقنيات حديثة لتصبح مصدراً حيوياً للحياة والزراعة في منطقة تعاني شحّ المياه....

فهذه الثروات الهائلة من الغاز والنفط والموقع الإستراتيجيّ والأراضي الخصبة، ليست مجرّد أرقام في تقارير اقتصاديّة، إنّما هي المفتاح لفهم الحسابات المعقّدة التي تُجرى خلف الكواليس، فإذا كانت غزة تمتلك كلّ هذه الثروات، فلماذا يُقال بأنّها تُكلّف إسرائيل عشرات المليارات؟ وهل هذه التكاليف حقاً خسارة، أم أنّ الحقيقة مختلفة تماماً؟

فقد قُدّرت التكاليف الأمنية والاقتصادية التي تحمّلتها إسرائيل بسبب غزة بأكثر من 70 مليار دولار، وهذا رقم فلكيّ بكلّ المقاييس، لكنّه يُطرح في الإعلام الغربي كـخسارة وعبء اقتصاديّ، ولكنّ الحقيقة أعمق من ذلك بكثير.

فهذه المليارات ليست خسارة، بل هي استثمار إستراتيجيّ طويل المدى في السيطرة على ثروات تُقدر بمئات المليارات، بل بتريليونات الدولارات على مدى العقود القادمة، فهي تكلفة السيطرة على مستقبل الطاقة في شرق المتوسط، وعلى بوّابة تجاريّة حيويّة، وعلى أرض تحمل من الثروات ما يكفي لتغيير موازين القوى الاقتصادية في المنطقة بأسرها، فقد تحدّث اللّه تعالى عن كيفيّة إصابة بصائر البشر بالعمى مقابل حبّ المال والثّروة، للدّرجة التي قد يستبيح لأجلها كلّ شيء، حتّى الدماء والأوطان،﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14]....

ولكنْ كلّ هذه الحسابات الاقتصاديّة والإستراتيجيّة، مهما بلغت دقّتها وتعقيدها، فإنّها تصطدم بحقيقة واحدة لم يحسبوا لها حساباً، وهي أنّ في غزة شعباً لا يُباع ولا يُشترى، فحين يتحوّل الحديث من الأرقام إلى الصفقات، ومن الاستثمارات إلى الشّراء، نكون قد انتقلنا من عالم الاقتصاد إلى سوق النّخاسة وتجارة الرقيق الحديث، ونكون قد اختزلنا قضيّة إنسانيّة وأخلاقيّة وتاريخيّة في معادلة تجاريّة باردة، فهنا يصبح التّعامل مع البشر كأنّهم سلع، ومع الأوطان كأنّها عقارات، ومع الكرامة الإنسانيّة كأنّها بضاعة قابلة للمساومة.

ناهيك عن كون هذا النّهج يتجاهل حقيقة جوهريّة مفادها أنّ أغلى ما في غزة ليس هو غازها ولا نفطها ولا موقعها، إنّما شعبها، فأنت أمام شعب رفض على مدى عقود أنْ يُباع، أنْ يُشترى، وأنْ يُساوَم على كرامته، شعب دفع من دمائه وأرواحه ثمناً باهظاً لأجل أنْ يبقى حرّاً على أرضه، مهما كانت التكلفة، فالشهداء الذين سقطوا دفاعاً عن أرضهم وكرامتهم ليسوا أرقاماً في سجلات الخسائر، إنّما شهود على عزّة لا تُقهر، وإرادة لا تُكسر...

فقد كان رفض الشعب الفلسطينيّ لهذه الصفقات المُهينة أعمق من كونه مجرّد موقف سياسيّ عابر، ليصبح تجسيداً حيّاً لقيمة إنسانيّة عظيمة ظنّوا أنّها انقرضت في زمن المادة والمصالح، ألا وهي الكرامة، تلك القيمة التي لا تظهر في الميزانيّات ولا تُحسب في الأرباح، لكنّها أغلى من ثروات الأرض بأجمعها، ففي زمن تُقاس فيه الأمور بالأرقام والمكاسب المادية، يأتي شعب غزة ليُذكّر العالم بقيمة الكرامة التي لا يمكن أنْ تُدرج في موازنات البنوك أو حسابات الأرباح...

فكم عُرض على الفلسطينيين مراراً وتكراراً أنْ يبيعوا قضيّتهم بثمن يختارونه سواء أكان الثمن أموالاً أو تنمية اقتصاديّة أو حياة أفضل في المنفى، إلاّ أنّهم رفضوا، لكونهم يعرفون أنّ الحياة بلا كرامة ليست حياة، وأنّ الوطن لا يُعوّض بالمال مهما كثر....

فما صمود غزة، رغم الحصار والدّمار والموت، إلاّ درس في القيم الإنسانيّة العليا، وتذكير بأنّ الإنسان ليس مجرّد كائن يبحث عن الطعام والأمان، إنّما هو كائن أخلاقيّ يبحث عن المعنى والكرامة والحريّة، وهو مستعدّ لدفع أغلى ما يملك في سبيل ذلك...

وإذا كانت الكرامة هي القيمة الإنسانيّة التي يتمسّك بها الشّعب الفلسطينيّ، فإنّ العدالة هي القيمة الأخلاقيّة التي يفتقدها العالم في تعاملهم مع هذه القضية، فأين العدل حين يُحاصر شعب ويُجوّع بينما ثرواته تُنهب؟ وأين الإنصاف حين تُغيّب القوانين الدوليّة لصالح القويّ على حساب الضعيف؟

فقد قال اللّه تعالى عن العدل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8]، فهو أساس الحكم، وهو حقّ لكلّ إنسان، دون النظر لدينه أو عرقه أو انتمائه، ولكنّ العدالة في قضية غزّة غائبة غياباً فاضحاً..

فترى شعباً محاصراً يُمنع من الحصول على أبسط حقوقه الإنسانيّة، بينما ثرواته تُنهب أمام أعين العالم....

وترى أطفالاً يموتون جوعاً ومرضاً، بينما تحت أقدامهم ثروات تكفي لإطعام أجيال...

وترى عائلات تُشرّد وتُهجّر، بينما أراضيهم تُباع وتُشترى في صفقات سريّة...

فأين العدالة في هذا كلّه؟ أين القانون الدوليّ؟ وأين الضمير الإنسانيّ؟

فغياب العدالة في قضيّة غزة لا يُساءَل المحتلّ وحده عنها، إنّما يساءل عنها جميع البشر، كأمّة ومجتمع إنسانيّ، فالقضية ليست قضيّة فلسطينيّة فحسب، بل هي اختبار لضمير الأمّة بأسرها، ولقدرتنا على الوقوف مع الحقّ حين يُظلم، ومع الضّعيف حين يُقهر، فهي قضية كلّ إنسان حرّ يؤمن بالعدالة والكرامة، وهي تذكير بأنّنا مسؤولون عن بعضنا البعض، وأنّ صمتنا على الظلم هو مشاركة فيه....

وإذا كان الشّعور بالأخوّة والمسؤوليّة المجتمعيّة يدفعنا للوقوف مع غزة أخلاقيّاً وإنسانيّاً، فإنّ فهم الأبعاد الاقتصاديّة للصراع يجعلنا ندرك أنّ القضية أعمق من ذلك بكثير...

فهي درس في العلاقة بين الثروة والحريّة، وبين الاستقلال الاقتصاديّ والسيادة السياسيّة، فمن لا يملك ثروته لا يملك حريّته، والاستقلال الاقتصاديّ هو أساس الاستقلال السياسيّ، والسيطرة على الموارد الطبيعيّة هي مفتاح السيادة الحقيقيّة، ولذلك يُصرّ المحتلّون على إبقاء غزّة محاصرة، فقيرة، ومعتمدة على المساعدات، لعلمهم بأنّ شعباً يملك موارده وثروته هو شعب لا يمكن السيطرة عليه، ولا يمكن فرض الشروط عليه....

وبعد،

فبعد كلّ هذه العقود من التضليل الإعلاميّ، والتبريرات الأمنيّة، والخطابات الأيديولوجيّة، انكشفت اللعبة أخيرً، فالصّراع على غزّة ليس صراعاً دينيّاً محضاً، ولا هو صراع أمنيّ وحسب، إنّما هو صراع على الموارد والثروات والسيطرة الإستراتيجيّة، على 3 تريليونات قدم مكعبة من الغاز في حقل نوى وحده، ومليار ونصف برميل من النفط بقيمة 115 مليار دولار، و40 كيلومتراً من الشواطئ الإستراتيجيّة على البحر المتوسط، وعلى أراضٍ خصبة ومياه جوفية قابلة للاستثمار...

فهنا تحذير وتبصير لإخوتنا الأبطال في غزة.. تنبّهوا جيّداً، فالعدوّ لا ينفكّ يحيك لكم المكائد. فإيّاكم ثمّ إيّاكم أنْ تسمحوا له باختراق صفوفكم، أو أنْ يزرع بذور الفتنة بينكم، فيحوّلكم أشتاتاً تتقاتلون فيما بينكم، فهذه إحدى إستراتيجيّاته الخبيثة؛ بتمكين فئة على أخرى، وتغذيتها بالمال والسلاح لضرب بعضكم ببعض، فهي حرب نفسيّة تستهدف نسيجكم المجتمعيّ المتين...

فليكن شعاركم: اليقظة.. ثمّ اليقظة.. ثمّ اليقظة... فحافظوا على وحدتكم، فهي أقوى سلاح في مواجهة هذه المؤامرات.. وتذكّروا بأنّ ما تحقّق اليوم لهو رصيد نضج بالدّمع والتضحيات، فاحفظوه، وابنوا عليه، ولا تدعوا ما أنجزتموه يضيع هباءً بعد أنْ قدّمتم الأرواح والقلوب والنفوس ثمناً له...

فهذه هي الحقيقة من جوانبها كافّة، وهذا هو ما يحاولون إخفاءه، وهذه هي اللعبة التي انكشفت....

ولكنْ، وفي وسط كلّ هذه الحسابات الماديّة، يبقى الإنسان هو الثروة الحقيقيّة التي لا يمكن تقديرها بثمن، ويبقى شعب غزّة، بصموده وعزّته وإرادته الجوهرة الأغلى التي حيّرت كلّ المخطّطين....

فها هي مرحلة إعادة البناء قد بدأت، وعلى الرّغم من أنّها ستكون رحلة شاقّة وستستغرق زهرة العمر، وستسير على أرض ملغّمة بركام الدّمار والقنابل الموقوتة التي خلّفتها حرب الإبادة، إلاّ أنّها ستسير بقوّة وإصرار وإرادة لا تلين من شعب غزّة العظيم، وسنكون معهم واقفين أمام منعطف تاريخيّ، منعطف يدعو شعوب العالم وضمائرهم للاتفاق معاً والتّضامن لكفّ يد إسرائيل عن عرقلة مسيرة الحياة ونهضتها من جديد، فهي قضيّة حياة تعود من جديد وإرادة..

وكلّ من يظنّ أنّ القضيّة الفلسطينيّة هي قضية عابرة، أو صراع هامشيّ، أو خلاف إقليميّ، نرجوكم أنْ تفهموا اللعبة، فنحن لسنا أمام صراع على الأرض فقط، إنّما أمام صراع على من يسيطر على ثروات المنطقة ومستقبلها، فانظروا تحت السطح، إلى المليارات المدفونة تحت الأرض والبحر، وتعلّموا من غزة الكرامة والحريّة اللتين هما أغلى من كلّ ثروات الأرض، فغزّة العزّة... لم تكن يوماً للبيع، ولن تكون..

فاللعبة انكشفت، ونحن فهمناها، فهل فهمتموها أنتم أيضاً؟